رعايـــة المعاقيـن عبـر التاريـــخ

الدكتور محمد الطاهر الحمودي

جامعة السابع من أبريل- ليبيا

لا شك أنّ الإنسان يشكّل العنصر الأساسي والمهم على سطح الكرة الأرضـية، فهو خليفة الله في الأرض، وهو ثروة الأمم الرئيسة التي تراهن بها مـن أجـل حيـاة أفضل.

إنّ البـشر سـواء أكـانوا أسـوياء أم معـاقين في علاقـات متـشابكة ومتداخلـة في اتجاهات عدة من الحياة، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم غيرها مـن الأنـشطة والاتجاهات الأخرى.

والوضع الطبيعي للإنسان هو أن يعيش في أسـرته وبـين أفرادهـا، بحيـث ترعـاه وتحقق له حاجاته الاجتماعية، والنفسية، والمادية، وغيرها من الحاجات الأخرى التي تعد ذات علاقة بالكائن البشري.

وبهذه الكيفية يمكن للفرد أن ينمو نمواً متكـاملاً قـدر الإمكـان، ليـساعده علـى تشكيل الشخصية السويّة القادرة على التكيف في المجتمـع وعلـى مواجهـة المواقـف الصعبة التي قد يتعرض لها وتواجهه في سنين حياته.

إنّ الأسرة هي المكان الطبيعي لإيواء كـلٍّ فـرد مـن أفرادهـا، فهـي المظلـة الـتي تحميهم، بحيث لا يبتعدون عنها إلاّ عند الحاجة الملحة لـذلك، وإن دعـت الـضرورة إلى وجود بديل، فيجب أن يكون أقرب ما يكون للوضـع الطبيعـي الأسـري الـذي يعيش فيه الفرد.

إنّ مشكلة الإعاقة ليست وليدة اليوم أو الأمس، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وإنّ تعرّض الأفراد للإعاقة بمختلف أنواعها ليست وليدة الحياة المعاصرة، فالإنسانية على مر العصور اتخذت مواقف مختلفة نحو هذه المشكلة وارتبط ذلك بالأفكار والثقافات السائدة في كلّ عصر.

لقد تحمل الأشخاص المعوقون على مدى قرون عبئاً مزدوجاً: فلم يقتصر الأمر على كونهم معوقين عقلياً أو جسمياً بسبب عيوب عند الولادة وأمراض وحوادث، بل إنهم يمثلون أيضاً مجموعة من أكثر مجموعات المجتمع في العالم تعرضاً للاستغلال والقمع والتجاهل[1].

وفي هذا الإطار، فإنّ الباحث سيتناول أحوال المعاقين خلال عدة أزمنة وعصور تاريخية تأتي كالآتي:

أوّلاً- العصور القديمة:

إنّ المتتبع للتأريخ يجد في الأزمنة والعصور القديمة أنّ مبدأ البقاء للأقوى هو الذي كان سائداً في تلك الفترة في المجتمعات البشرية، وأمّا بقية الضعفاء فلا مكان لهم بين الأقوياء، بحيث كانت القوة هي المقياس الوحيد للأشياء كلها، فبالقوة واللياقة الجسميّة يؤّمن الإنسان غذاءه ويدافع عن نفسه، بل وعن جماعته ومكانه وملكيته أيضاً.

لقد كان الإنسان في تلك الفترة يصطاد الحيوانات والأسماك، ويتعرض خلال ذلك إلى العديد من المخاطر، سواء أكانت من قبل الحيوانات المفترسة، أم الظروف الطبيعية والمناخية الصعبة التي تواجهه وتتحداه أحياناً، ولكن نتيجة لقوته وسلامته

---

(1) الوقائع، مجلة الأمم المتحدة، السنة الثالثة عشر، العدد (13)، سبتمبر 1992، ص76.

الصحية عندما تتوافر لديه، قـد يـستطيع الـتخلص أو الخـروج مـن تلـك المواقـف الحرجة التي قد تقضي عليه أحياناً أخرى.

أمّا المعاقون فكانوا منبوذين وكانت نظرة المجتمع إليهم سلبية وسـوداويّة، وذلـك بسبب القصور والعجز الكلي أو الجزئي المصابين به نتيجة للإعاقة، هذا وقد أرجـع الناس من قديم الزمان شذوذ تكوين المخلوقات إلى قوى غيبيـة، أو تـصورات غـير منطقية... وما صاحب ولادتها من أحداث اعتبروها نذير شؤم بمقدمها إلى الحياة، أو هي دلالة على غضب الآلهة، ولهذا كان من عادة القدماء أن يقتلوا كلّ وليـد يجـيء بشيء شاذ في جسمه، وأحياناً يحكمون بالموت على أمه ظناً مـنهم أنّ ذلـك إرضـاء لآلهتهم الغاضبة، كذلك كانت الإعاقة (العمـى ، القـصور...) مرتبطـة في العـصور الأولى بغـضب الآلهـة، وأنّ الرجـوع إلى الميثلوجيـا اليونانيـة والرومانيـة والجرمانيـة والسلتية، يساعد الدارس على الوقوف على مئات الأساطير من هذا النـوع، وكـان العمى بصفة خاصة مرتبطاً بانتقام الآلهة التي حرمت عبدها من نورها و من التمتـع بجمال كونها نتيجة فواحش ارتكبهـا، أو قربانـاً لم يقدمـه لهـا، أمّـا الإعاقـة الذهنيـة فكانت مرتبطة بعالم الشياطين، لذا تحتم أن يُبْعَد ذو الإعاقة الذهنية من عالم الإنس[1]

(1) رمضان محمد القذافي، سيكولوجية الإعاقـة، ليبيـا، تـونس، الـدار العربيـة للكتـاب، 1988، ص50.

وبذلك اتسمت معاملة هؤلاء المرضى بالعنف والقسوة والاضطهاد والجهل والخرافة، حيث كان المرضى يصفدون بالأغلال الفولاذية، وتكوى أجسادهم بالنار، وكانوا يعالجون – يعاملون- بأبشع الطرق وأقساها[1].

إذن من خلال ذلك الوضع المتردي والصعب لحياة المعاقين، نجدهم بحكم إعاقتهم غير قادرين على المشاركة الفاعلة في أغلب الأنشطة السائدة، وقضاء، وإحضار لوازم الحياة اليومية، بل وأحياناً نجدهم غير قادرين حتى على حماية أنفسهم من الأخطار التي قد تهدد حياهم.

---

(1) خالد رشيد الحيسري، الصحة النفسية والمرض النفسي، الرياض، شركة مطابع نجد التجارية، جمادى الثاني، 1404هـ، ص13.

ثانياً- العصر الإغريقي:

أمّا في العصر الإغريقي، فلم يشهد حال المعاقين تحسناً يذكر في أحـوالهم، حيـث نجد أنَّ أفلاطون كان رأيه في المعاقين علـى درجـة كـبيرة مـن التطـرف والمغـالاة في رفضهم ونبذهم والـتخلص مـنهم، حيـث لم يجعـل لهـم مكانـاً ولا دوراً في مدينتـه الفاضلة، واعتبر أفلاطـون أن الأفـراد غـير الأسـوياء يـشكلّون عبئـاً علـى الدولـة وتعويقاً لها على القيام بوظيفتها، بل نادى أفلاطون بعدم السماح لهم بالتزاوج، لأن ذلك يؤدي إلى تكاثرهم وإلى إضعاف وخراب المدينة. وبما أنّ أفلاطون نادى بمدينـة فاضلة خالية من المشاكل والعيوب لها القدرة على توفير الحيـاة الفاضـلة لـسكانها، فإنه اعتبر العقل هو الأساس السليم لتوجيه الأمور فيها، ودعـا صـراحةً إلى إبعـاد الأشخاص المعاقين خارج حدود مدينته، وفي اسـبرطة حيـث كانـت القـوة أسـاس الحياة وكان المرضى والمصابون بعاهات، والأطفال المـشوّهون غـير مرغـوب فـيهم، وكانوا لا يحضون باهتمام الدولة بل كانوا يعاملون معاملة قاسية، وكان الاتجاه العام هو التخلص منهم[1].

ثالثاً- العصر الروماني:

أما فيما يخص العصر الروماني، فقد بقي مصير المعوقين بيد شيخ القبيلة، الـذي كان بيده وحده تقرير مصائرهم اعتماداً على درجة تقديره للإعاقة، وعلى ما تحتاجه من خدمات اقتصادية أو اجتماعية، ولذا فلم تكن هناك قاعدة ثابتة يمكـن الرجـوع إليها في التعامل مع مختلف حالات الإعاقة[□].

---

(1) عبد السلام بشير الدويبي، الطفولة والتخلف الـذهني، طـرابلس، الجماهيريـة الليبيـة، المنـشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1985، ص.ص8-9.

(2) رمضان محمد القذافي، سيكولوجية الإعاقة، مرجع سابق، ص16.

ومع ذلك يبقى حال المعاقين من حيث اتجاهات ومشاعر المجتمع السلبية نحوهم، حيث كان العصر الروماني مرحلة لاحقة واستمراراً لمعاناة المعاقين خلال العصر اليوناني السابق، التي كانت تتسم بالدونية والاشمئزاز وعدم الاحترام لأدميتهم، بل وإهمالهم والتفكير في كيفية التخلص منهم وحرمانهم من حقهم في الحياة إلى جانب إخوانهم الأسوياء.

رابعاً- العصور الوسطى:

أمّا في العصور الوسطى فلم تلق فئة المعاقين أي اهتمام أو تقدير لهم، بل استمرت نظرة المجتمعات القديمة في أوروبا حتّى منتصف تلك العصور نظرة احتقار وإهمال وعدم رعاية، "فقد كانت الكنيسة تقول بأن المرض بأنواعه قصاص على ما اقترفه الإنسان من ذنوب، وأنّ الإعاقة تقهقر فكري تضعف فيها الروح وتسيطر عليها المادة، وتعتبر العصور الوسطى في أوروبا بما صاحبها من مظاهر الجمود الفكري، وطمس الأفكار المعارضة لاتجاهات رجال الكنيسة عصر نكبة حقيقية للمعوقين، إذ عملت محاكم التفتيش على اضطهادهم وإيذائهم بدعوى تقمص الشياطين لأجسادهم، وبذلك فقد أصبحوا صنائع للشياطين"[1].

فوق ما تقدم كانت العصور السالف ذكرها تعامل فئات المعاقين معاملة لا تتسم بالإنسانية على الإطلاق، وقد ساد التفكير الخرافي غير الواقعي لرجال الكنيسة نحو المعاقين في تلك الفترة، الأمر الذي ألحق بالمعاقين أبشع أشكال التعذيب والإهانة وعدم الاحترام لأدميتهم.

---

(1) رمضان محمد القذافي، سيكولوجية الإعاقة، مرجع سابق، ص14.

خامساً- العصر الإسلامي:

استمر حال المعاقين على هامش الحياة يعاني من العادات السيئة والأفكار والاتجاهات الخاطئة تجاههم التي كانت تسود في تلك المجتمعات، إلى أن جاء الدين الإسلامي الذي يدعوا إلى الحب والتعاطف وعدم التفرقة، وإلى الرفق بالضعفاء والعجزة ومساعدة المحتاجين منهم، وإشاعة المساواة والعدل بين الناس دون النظر إلى الجنس أو اللون.

ولقد فضل الدين الإسلامي بني آدم على بقية المخلوقات الأخرى بمدى الإيمان بالله، وبما يقدمون من عمل صالح وطاعة لله ورسوله، فالإسلام لا يطالب الإنسان إلاّ بما يستطيع القيام به من عمل صالح.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا...﴾[1]، ويقول جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[4].

---

(1) سورة البقرة: من الآية (286).

(2) سورة الإسراء: الآية (70).

(3) سورة النور: من الآية (61).

(4) سورة الحج: من الآية (46).

ويقول صلى الله عليه وسلم: "ليس الأعمى من يعمى بصره، وإنما الأعمى من تعمى بصيرته"[1].

ولم يقف الإسلام عند هذا الحد فقط؛ بل اهتم بالجوانب الخلقية والمعنوية والنفسية لدى بني الإنسان، فنهى عن الاستهزاء والاحتقار، وحث على عدم التفرقة بين سوي ومعاق، وبين ذكر وأنثى، لما يترتب على هذه التفرقة من نتائج سيئة على الإنسان نفسه وبخاصة المعاق.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

وفي هذا الإطار فقد "ورد كثير من الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى التعاون والتآزر والحب ومساعدة الضعيف أو المعوق... فلا يشمت الناس في مصائب بعضهم بعضاً، لأن الإسلام كما رأينا جعل من المؤمنين إخواناً متعاونين في الشدائد لحل مشكلاتهم... وكل إنسان معرض للإصابة والابتلاء، فإن وجد من أخيه العون هانت أمامه كل الشدائد والنكبات..."[3].

---

(1) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين الأفغاني بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ، 1990م، رقم الحديث (7569)، ص464.

(2) سورة الحجرات: الآية (11).

(3) محمد مصطفى حماد، المعوقون والمسكن والمدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990،ص.ص22-23.

وعليه اهتم المجتمع الإسلامي اهتماماً كبيراً بفئات المعاقين ولم تهمل كما كانت في العصور السابقة للإسلام، إذ خصص الإسلام لفئة المعاقين من يقوم بمساعدتهم في حركتهم وتنقلهم، وأقيمت المراكز والمستشفيات لرعايتهم وتقديم العلاج اللازم لهم، فكان يطلق في أغلب الأقطار العربية والإسلامية حتّى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي على المستشفيات (البيمارستانات) التي يتوافر فيها العيش الكريم للمعاق والمريض على حدٍ سواء، وقد استمر الحكام المسلمون في الاهتمام والعناية بالمرضى والمعاقين، وتقديم الخدمات اللازمة لهم، سواء أكانت طبيّة أم غذائية أم ترويحية، ومن أمثال أولئك رموز الإسلام: عمر بن الخطاب، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم... ممن وفروا الخدمات والرعاية الجيدة لأولئك الذين هم في حاجة إليها، ومن مظاهر اهتمام عمر بن عبد العزيز الشديد بالرعاية الاجتماعية بالمرضى والمعاقين أنه عمل على إحصاء المعاقين وخصص مرافقاً لكلّ كفيف وخادماً لكلّ مقعد لا يقوى على أداء الصلاة قياماً[1].

وفي اتجاهنا نحو القرون الأخيرة فإنّنا نجد أنّ معظم المجتمعات فيها قد واصلت ما بدأه المسلمون من اهتمام بالمعاقين واحترامهم وتقديرهم، بحيث استفادت بما جاء به الإسلام من قواعد وأسس وسُبل رعاية المعاقين والمرضى، واحترامهم احتراماً لآدمية الإنسان بعامة.

وفي عام 1601م ظهر قانون الفقر الأوّل الذي أكد على مسؤولية الدولة في الاهتمام والرعاية للمرضى والمحتاجين ومعدومي الأهلية، وشهد القرن الثامن عشر تطوراً ملحوظاً في العلوم الطبية وتزايد الأطباء، وبالتالي تنعكس الأمور إيجابياً على

---

(1) سيد محمد فهمي، مدخل إلى الرعاية الاجتماعية من المنظور الإسلامي، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1988، ص.ص193-194.

رعاية الأفراد ومن بينهم المعاقين، وفي عام 1893م أنشأت مدارس خاصة لتعليم المكفوفين والصم والبكم، وخلال الفترة ما بين 1897- 1916م، صدرت العديد من القوانين التي تؤكد وتهتم برعاية المرضى والمعاقين وتكفل حقوقهم في الضمان الاجتماعي إذا ما تعرضوا لإصابات أثناء العمل[1].

وهكذا نجد في العصر الحديث، وبخاصة في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين وبعد صدور تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، السنة الدولية للمعاقين، في الدورة الحادية والثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة، أشارت الجامعية العامة في قرارها 31/ 123 المؤرخة في 16 كانون الأوّل، ديسمبر 1976، وإلى قرارها 2856 (د-26) المؤرخ في 20 كانون الأوّل، ديسمبر 1971، والمتضمن لإعلان حقوق المتخلّفين عقلياً، وقرارها 3447 (د-30) المؤرخ في 9 كانون الأوّل، ديسمبر 1975 والمتضمن لإعلان حقوق المعاقين وقرارها 31/ 82 المؤرخ في 13 كانون الأوّل، ديسمبر 1976 بشأن تنفيذ إعلان حقوق المعاقين، واستناداً إلى هذه القرارات جميعاً أعلنت سنة 1981 سنة دولية للمعاقين، شعارها (المشاركة الكاملة)، ودعت الجمعية العامة في القرار ذاته جميع الدول الأعضاء والمنظمات المعنية إلى الاهتمام بوضع تدابير وبرامج لتنفيذ أهداف السنة الدولية[2].

وإلى جانب ذلك ظهر في العصر الحديث الاهتمام الكبير بحالات الإعاقة، والبحث في أسبابها المتعددة والكشف عنها وتقديم العلاج اللازم إلى المعاقين،

---

(1) أحمد مصطفى خاطر، الخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، (دون تاريخ)، ص457.

(2) من أجل المعاقين، السنة الدولية للمعاقين: المشاركة الكاملة، (الجزء الرابع)، الأمانة العامة للاتحاد العربي للأخصائيين الاجتماعيين، بنغازي، (بدون تاريخ)، ص40.

وإظهار حجم مشكلة الإعاقة ومسبباتها، والتخلص من الأفكار التي كانت سائدة في العصور القديمة والوسطى المظلمة التي كانت تصف المعاقين بأنهم صنائع للشياطين، وغير ذلك من الصفات والنعوت التي لا تليق بالإنسان وبآدميته.

وهكذا أصبحت المجتمعات في العصر الحديث تهتم بالمعاقين وتوفر لهم الخدمات والرعاية اللازمة التي تؤهلهم أو تعيد التأهيل إليهم حتّى يدمجوا في المجتمع ويسهموا في بنائه حسب قدراتهم وإمكانياتهم المتوافرة لديهم، وبذلك يبعد عنهم الشعور بالنقص ويحسون بأنهم مثل الأسوياء عليهم واجبات نحو أنفسهم ومجتمعهم، ولهم حقوق مكفولة ليحيوا حياة منتجة وكريمة.

ومن الأعمال التي يمكن أن يمارسها المعاق في العصر الحالي هي: تقديم بعض الخدمات التي يستطيع القيام بها والتي تتماشى وقدراته، مثل بعض الخدمات البريدية والطباعة، وبعض الصناعات اليدوية، وغيرها من الأعمال التي تُظْهِر قدرة المعاق على تحدي الإعاقة وصعابها، وتسهم في إدماج المعاق في الحياة الاجتماعية والخدمية والإنتاجية لمجتمعه من خلال ما يقدمه من خدمات تعود بالفائدة العميمة على المجتمع وكافة أفراده بعامة، وعلى المعاق نفسه، وتخلصه من الشعور بالنقص وعدم المقدرة على مجاراة الأسوياء في العديد من الأعمال التي يستطيعون القيام بها.

ولقد اهتم العصر الحديث الاهتمام الواضح بفئات المعاقين المختلفة، وأخذت المؤسسات الأهلية والرسمية، بل والدولية دورها الفعال في هذا المجال، بحيث طورت البحوث والدراسات العلمية في مجالات الإعاقة، ومنها مجال الصحة النفسية والمرض النفسي، والمرض العقلي، والعلاج، وزادت أنواع المراجع العلمية والمجلات والدوريات المتخصصة في هذا المجال أيضاً، وامتد التعاون إلى بلدان كثيرة من العالم، وأقيم أوّل مؤتمر دولي للصحة العقلية في عام (1930)، ويتمثل هذا النشاط على

المستوى الدولي فيما تقوم به منظمة الصحة العالمية وغيرها من منظمات الأمم المتحدة من اهتمام بهذه الفئة من أبناء المجتمع[1].

من خلال ما تقدم اتضحت إذن ملامح التغير في كيفية معاملة المعاق بين الماضي والحاضر، إذ نلمس الاتجاه نحو احترامه، وإتاحة الفرصة لإبراز ما لديه من قدرات وإمكانات لتسهم في دفع عجلة التقدم إلى الأمام، وبالتالي إدماج المعاق في الحياة المهنية الإنتاجية والاجتماعية، بل والجوانب الرياضية والسياسية كذلك، وغيرها من مواطن العمل والإنتاج والبحث العلمي المختلفة، والتي تخص الأسوياء والمعاقين على حدٍ سواء، مع الأخذ في الاعتبار الفروق الفردية والقدرات الخاصة التي تميز الأفراد بعضهم عن بعض.

---

(1) خالد رشيد المحيسري، الصحة النفسية والمرض النفسي، مرجع سابق، ص24.